من تراب الطريق! (٢٧٥)

نظرية مالتس (*) والانفجار السكانى !

لازلت أذكر ما تلقيناه من دروس فى الاقتصاد السياسى بحقوق القاهرة ١٩٥٥ على يد الأستاذين الكبيرين الدكتورين سعيد النجار ورفعت المحجوب، وما سمعناه منهما وقرأناه لهما عن النزعة التشاؤمية فى إطار النظريات الاقتصادية فى السكان، فبعد أن كان الزمن الفائت يرى القوة والمنعة والرخاء فى زيادة السكان، حتى كتب هنرى الرابع ملك فرنسا فى سنة ١٥٩٩ أن قوة وثروة الملوك والأمراء تتوقف على رخاء وزيادة السكان، وتوسط الاقتصادى " كيزنيه " فقال إن الاعتقاد بأن السكان هم سبب الثروة لا يعدو أن يكون أخذاً للنتيجة على أنها سبب. إذ الثروة هى التى تحدد السكان . بمعنى أنهم نتاج الظروف الاقتصادية .

نعود إلى النزعة التشاؤمية التى ارتبطت بالقس الإنجليزى "كوماس مالتس"، الذى عين أستاذا للتاريخ الاقتصادى فى الكلية الهندية الشرقية، فقد بحث أهم مشاكل عصره وهى بؤس العمال، وعالج حلولا عديدة لمساعدتهم، ثم خلص فى النهاية إلى أن قانونين هامين غير قابلين للتغيير يحكمان طبيعة البشر : القانون الأول : ضرورة الطعام لوجود أو حياة الإنسان . والقانون الثانى ميل كل من الجنسين إلى الآخر . فالقانون الأول يترجم حاجة الإنسان إلى الطعام، بما يعنى أن المواد الغذائية والإمكانيات

(*) المال ٢٠٠٩/٦/١٠

المتاحة تحدد بالضرورة عدد السكان، بينما يترجم القانون الثانى " تزايد السكان " !

ارتأى مالتس (١٨٣٤/١٧٦٦) أن رغبة وقدرة الإنسان على التناسل أكبر من قدرته وقدرة الأرض وسائر العناصر الإنتاجية على إنتاج ما يلزم لبقاء الإنسان، فإذا تزايد السكان - وهم يتزايدون بمتوالية هندسية (أى يتضاعفون) كل (٢٥) عاما، بأكثر من قدرة العناصر الإنتاجية على الإنتاج، اختل التوازن الواجب بين الكتلة السكانية والكتلة الغذائية، فيفقد الإنسان فى محيطه ضرورات حياته، ومن هنا نشبت وتنشب المجاعات وقامت وتقوم الحروب التى تفنى البشر حتى تعود المعادلة إلى التوازن !

لم تسد هذه النظرية، وناهضتها نزعات تفاؤلية، ومع ذلك لا تزال هاديا لمجتمعات اختل فيها التوازن، ونحن هنا أحوج إلى الالتفات إلى مخاطر الانفجار السكانى مع تواضع أو تراجع الإنتاج .. ففى الوقت الذى نفسر به حديث : " تزاوجوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة " - بأن الزيادة المتغياة هى أى زيادة عددية مهما افتقدت التربية والتأديب والتهذيب والتثقيف، وأن التزايد بالتناسل غاية فى ذاته لا تلتفت إلى الكيف، ولا تهتم إلاّ بالكم، الأمر الذى قاد ويقود إلى تفشى الفقر والبؤس والتعاسة، وضياع أى أمل فى حصد أسباب القوة والتقدم والرقى .

ومن اللافت الموجع أننا مع استسلامنا بلا عقل للتناسل فى حد ذاته، دون أى التفات لمقتضيات القدرة على التربية والتنشئة الصالحة، فإننا أيضا نعطى ظهورنا للإنتاج، لأننا نعطى ظهورنا للعمل، وآية ذلك أنه لا قيمة لدينا لوقت .

فى المجتمعات المتحضرة يقدسون " الراحة "، لأنهم يقدسون " العمل " .. فالراحة فى استخدامها الصحيح تقابل عملاً وجهداً منتجاً مبذولاً، وبغير ذلك تكون الراحة فراغاً ومضيعة للوقت وتغليقاً لكل أبواب الإنتاج، فكيف إذن يكون التناسل والتكاثر، بينما الإنتاج يتراجع بتراجع

العمل وقيمة الوقت حتى إن الإجازات تصل لدينا فى المرة الواحدة إلى أسبوع، والمحصلة لهذه الحماقة هى تزايد الفقر لا القوة، وشيوع البؤس والتعاسة لا الرضا أو السعادة ...

الغريب أننا مع حاجتنا إلى التبصر إزاء الانفجار السكانى الذى لم نكتف بعوادمه وآثاره المدمّرة، فزدنا عليه فى قانون الجنسية المصرية أن تمنح لكل مولود لأم مصرية، حتى لو كان الأب إسرائيليا !! .. لنضيف إلى أحمالنا أحمال المولودين لآباء أجانب كان الأجدر أن يحملوا جنسية آبائهم، نفعل ذلك ونحن نئن بما نحمله، ونئن بالانفجار السكانى مع الخمود الإنتاجى ! فهل تبصرنا بما نسوق أنفسنا إليه فى عمّى ضرير لا فطنة فيه ولا بصيرة ولا تمييز ؟!